المقدمة

منذ أول تاريخ لنشوء الإنسان قبل أربعين ألف سنة أو أكثر قليلاً، بدأ عقل الإنسان يتطور بايولوجيّاً واجتماعياً بمرور الزمن، ووصل الأمر إلىٰ مرحلة الإدراك والوعيّ بوجوده وحاجته للآخرين، وكان أول مظهر من مظاهر التفكير الإنساني تفكيراً اجتماعياً.

وبتعقد الحياة وتطورها، وحاجته إلىٰ أساليب متطورة في التفكير لحل مشكلاته، كان العقل الإنساني يتفاعل مع كل مرحلة ويستوعب متطلباتها، وكان طبيعيّاً أن يتأثر العقل الإنساني بالبيئة ومتطلباتها الاجتماعيّة، ويؤثر فيها، ليحقق من خلالها أرقىٰ الحضارات والنظم الاجتماعيّة والثقافات المتنوعة، والمعارف المزدهرة.

كانت الحياة الاجتماعيّة وأزماتها وثوراتها تنجب مئات المفكرين والفلاسفة والعلماء الذين أسهموا بإبداع في تطوير الفكر الاجتماعي وتنوير الحياة. لهذا فإن الكتاب يسعىٰ لتحقيق أكثر من هدف:

- محاولة تتبع جذور التفكير الاجتماعي عبّر حقب زمنية متتالية تبدأ من حضارات الشرق القديم وتنتهي بمرحلة من العصر الحديث، وهي بداية المرحلة العلمية لنشأة علم الاجتماع.

- تحليل الحياة الاجتماعية في ضوء مسيرة الفكر الإنساني، وتشريح بعض نماذجها بقصد معرفة طبيعة الفكر الاجتماعي لكل مرحلة، وإبداع الإنسان ودوره في بلورة التفكير العلمي.

- إثبات الفرضيّة التي تقول بأن الفكر الاجتماعي إنما هو تراكم معرفي وحضاري لجهود جميع الحضارات، ولجهود رجال الفكر والفلسفة في مختلف العصور.

غير أن دراستنا مقيّدة بعدّة قيود:

القيد الأول: إنها تتوقف عند فترة زمنية تاريخية معينة من التاريخ، أي البداية العلميّة الأولىٰ لنشأة علم الاجتماع، وبداية تكوين النظرية الاجتماعية، وذلك لأسباب منهجيّة تتعلق بضرورة الالتزام بمفردات مادة الفكر الاجتماعي المقرّرة في الجامعة المفتوحة، ومحاولة عدم الاقتراب من مفردات مادة النظريات الاجتماعيّة تلافياً للإعادة والتكرار.

القيد الثاني: إننا لا نقوم باستعراض جميع المفكرين، بل نختار منهم ما نعتقد إنه قريب في عطائه للفكر الاجتماعي، وذو قيمة معاصرة.

القيد الثالث: إن منهجيّة الكتاب، التاريخي والوصفي والتحليلي، استدعتها ضرورتان: طبيعة الموضوع الذي يتطلب تسلسلاً تاريخياً لاكتشاف التطور، ووصفاً للأحداث وتحليلاً للمنجزات الحضارية. والضرورة الثانية محاولة خلق توازن بين عناصر ثلاثة متداخلة: الرصانة العلمية في الكتابة، وبساطة اللغة والفكرة، واختصار التاريخ الذي عمره ستة آلاف سنة، وكلّ هذه الضرورات، القصد منها، هو تقديم مادة علميّة ذات خصوصية تتناسب مع طبيعة الجامعة المفتوحة وفلسفتها التعليميّة، وتتناسب مع طلبتها الذين يتعلمون عن بعد، ولهم مستوياتهم المتباينة، ولهذه الأسباب، حرصنا علىٰ هذه الخصوصيّة، واخترنا بعض أساليب التوضيح البسيطة، بالابتعاد عن تعقيد الفكرة، وتسهيل فهم المادة من خلال اتباعنا صيغة عرض الأفكار علىٰ شكل نقاط، والاعتماد علىٰ الخلاصات المتكرّرة، ونماذج من الأسئلة للمراجعة والمناقشة.

ولتحقيق كل الأهداف السابقة الذكر، قسم هذا الكتاب إلىٰ ثمانية فصول، تحاول كلها، عرض جذور الفكر الاجتماعي، ومراحل تطوره، وتحليل طبيعته ومصادره، وإسهامات مفكريه وعطائهم الفكري والحضاري، ابتداءً من عصر الحكمة إلىٰ عصر العلم.

يشمل الفصل الأول مقدمة عامة في التفكير الاجتماعي، والفصل الثاني الفكر الاجتماعي في الشرق القديم، والفصل الثالث يتناول الفكر الاجتماعي اليوناني، والفصل الرابع الفكر الاجتماعي الروماني والمسيحي، أما الفصل الخامس فهو مخصص للفكر الاجتماعي العربي الإسلامي، بينما أعطينا فصلاً خاصاً، وهو الفصل السادس، للفكر الاجتماعي عند ابن خلدون، أما الفصل السابع فهو يشمل الفكر الاجتماعي الأوروبي في بداية العصر الحديث، والفصل الثامن والأخير فهو للفكر الاجتماعي في عصر النشأة العلمية الأولىٰ لعلم الاجتماع.

وختاماً أرجو من الله التوفيق فيما أنجزته، وشكري الكبير للأستاذ الدكتور إحسان محمد الحسن لما قام بهِ من دور فعّال في الإسهام برفدنا بالمادة العلمية والمصادر والمشاركة ابتداءً من الفصل الخامس إلىٰ الفصل الثامن. وكما أشكر الأستاذين د. علي محمد البشتي والوحيشي أحمد البيري على ما أبدياه من ملاحظات قيمة ساهمت في تطوير الكتاب. كما أشكر الجامعة المفتوحة لما قامت به من تسهيل مهمتي العلميّة، ولأسرتي الحبيبة التي هيأت لي المناخ المناسب للقراءة والكتابة.

وبالله التوفيق، ،

د. ياس خضير البياتي
طرابلس ـ ليبيا
1999_5_5